مظـــاهر
الاغتراب النفسي والاجتماعي
ودوافعهما في شعر المتنبي

د. يوسف عباس علي حسين
دكتوراه في الأدب القديم والنقد
جامعة جنوب الوادي –كلية الآداب بقنا

مقدمة

الحمد لله الهادي إلى سبيل الرشاد ، وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمدٍ خير العباد ، وعلى آله وصحبه الأطهار الأمجاد ، أما بعد

فمهما يكن من أمر فإن ظاهرة الاغتراب النفسي والاجتماعي قد لا يستهوي هذا العنوان من يقرؤه ؛ لكثرة ما كُتب تحته من دراسات تكاد تكون متشابهة ، ولا جديد سوى إعادة الترتيب .

ولا أزعم أني سآتي بما لم تستطعه الأوائل ، بيد أنني أجد رحلة المتنبي هي رحلة ضياع لا رفعة فيها ولا سمو لها، لدينا ما يشبه المسخ الذي أصاب الشخصية المرتحلة التي تجدد نفسها على الدوام ولا تصبر على شيء ، كأن الصبر في عالم الرحلة فضيلة مرجوة ، فكانت الرحلة عنده طموحاً وكانت رحلته فجراً كاذباً – مع الأسف– وراء بلوغ ما يطمح إليه ، فأصبح مستقبله كابي اللون ضائعاً والماضي القديم ذهب ولن يحيا من جديد ، فحدثت القطيعة الجافية، وحلّت اللحظات التي تخطف كل شيء محل الأمل، فساد حياته العبث، فاقداً الثقة بالآخرين من خلال تعامله مع الحياة اليومية ، فتحولت آماله إلى آلام ، وكان شعوره بالعبث قد خالجه بشحنات متفاوتة طوال حياته ، فأحسّ بالاغتراب النفسي والاجتماعي في مجتمعه الذي كان يعيش فيه، فجعل من الوجود البشري أساس تشاؤمه.

وفرضت طبيعة الدراسة أن تكون في مقدمة ومباحث هي:

- مفهوم الاغتراب
- السياق اللغوي للاغتراب
- ظاهرة الاغتراب في الأدب العربي

- العوامل الأساسية ذات الأثر المباشر في تعميق الشعور بالاغتراب
  - حياته الفقيرة
  - طموحه
  - تشاؤمه ويأسه
- مظاهر الاغتراب في شعره
- الخاتمة
- المصادر والمراجع

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله نواةً صالحة للنظر في دراسة الاغتراب النفسي والاجتماعي ، واستظهار ما تحتوي عليه من نفائس ودرر ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، فهو وحده القادر على ذلك والموفق إليه .

د. يوسف عباس

الغربة :

جاء في معجم اللغة: الغربة هي الاغتراب ، تقول : تغريب واغتراب بمعنى فهو غريب وغُرُب (بضمتين) والجمع غرباء، والتغريب: النفي من البلد[١].

وأغرب : أي صار غريباً ، أغرب الرجل : دخل في الغربة ، مثل أنجد : إذا دخل نجداً

وأغرب في الكلام : أتى فيه بعيداً عن الفهم [٢].

وغَرُب عن وطنه غربة : ابتعد عنه ، واغترب : نزح من الوطن ، وأغرب وغرب في الأرض : أمعن فيها مسافراً سفراً بعيداً [٣].

والغرب : الذهاب والتنحي عن الناس

والغُربة والغُرب: النوى والبعد

وشأو مغرب ومغرب : بعيد

والغربة والغرب والاغتراب والتغريب : النزوح عن الوطن

ورجل غروب وغريب : بعيد عن وطنه

وأغرب الرجل : صار غريباً

والمغرب : المبعد في البلاد [٤]

---

(١) مختار الصحاح للجوهري – مادة / غرب

(٢) المصباح المنير، مادة غرب

(٣) المعجم الوجيز، مادة غرب

(٤) ابن منظور المصري – لسان العرب–مادة /غرب

مفهوم الاغتراب Alienation :

يُعد مفهوم الاغتراب مفهوماً مطاطاً نظراً لتعدد أشكاله واستخداماته في العديد من العلوم النفسية والسياسية والاجتماعية والدينية والفلسفية.

السياق اللغوي للاغتراب :

إن الأصل لكلمة اغتراب هو Alienation ، ويستمد هذا الاسم معناه من فعل Alienate ، بمعنى تحويل شيء ما لملكية الآخر ، والانتزاع أو الإزالة، وهذا مستمد بدوره من فعل آخر هو Alienus ينتمي إلى شخص آخر ويتعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد بصفة نهائية من لفظ Alius الذي يعني الآخر سواء كاسم أو صفة(١).

ويلاحظ أن " هيجل " يستعمل مصطلح اغتراب Enttremduny بصورة مزدوجة هو في بعض معالجاته يستعمله في سياق الانفصال separation .

وفي مواضع أخرى من بحوثه يعطيه معنى التخلي أو التنازل ، ويعتبر " ماركس " من رواد البحث الهادف لتحليل مفهوم الاغتراب الذي منحه طابعاً أمبريقياً وسوسيولوجياً ، بعد أن كان مفهوماً ميتافيزيقياً ولاهوتياً (٢)

---

(١) محمد خضر عبد المختار – الاغتراب والتطرف نحو العنف – دراسة نفسية واجتماعية ، سنة ١٩٩٨م / ص ١٤٩: ١٥٠.

(٢) قيس النوري – الاغتراب – اصطلاحاً ومفهوماً ودوافعاً – عالم الفكر – المجلد العاشر – العدد (١) – الكويت ، سنة ١٩٩٨م / ص ٢٠، ٢١.

ومن أنواع الاغتراب: اغتراب نفسي اجتمـــاعي – فلـــسفي – سياســـي – اقتصادي[1].

ولا يهمنا في هذا الصدد إلا الحديث عن الاغتراب النفسي الاجتماعي الذي أخذ المتنبي يعاني منه ، وهو شعور الفرد بالضيق والحرمان واللامعنى للحيـــاة ، والشعور بفقدان الحب ، وعدم السعادة ، والشعور بالوحدة وانفصال الفرد عن ذاته والآخرين مما يصاحب ذلك الشعور بعدم الرضا عن الحياة ، فالمتنبي ليس غريبـــاً بجسده عن الآخرين.

فليست الغربة مكانية ، وإنما غربته كانت نفسية وزمانية ووجودية ، فنعني بالغريب : هو من كان غريباً حتى وهو مع أصدقائه ، وفي داخـــل وطنـــه ؛ لأن

---

(١) يعني بالاغتراب النفسي الاجتماعي : هو إحساس الإنسان بالاغتراب عن أسرته ومجتمعـــه متمثلاً في عزلته وانسحابه من المجتمع حيث يعيش الإنسان داخل نفسه مغترباً ، فيفقد الهويـــة، ويتكون مفهوم الذات السلبي ، ومن مظاهره العزلة والانسحاب ، ويكون الإنسان ضد المجتمـــع، وإذا استمر هذا الاغتراب لدى الإنسان يصيبه بمرض انفصام في الشخصية نتيجة لانعزاله عـــن المجتمع .

– أما الاغتراب الفلسفي فيعني به : اغتراب الإنسان عن فلسفة المجتمـــع الـــسائدة وأيدلوجيـــة واختراعه لنفسه فلسفة خاصة به تيسر له أسلوب حياته ، ولكن طريقة خاطئة .

– والاغتراب السياسي : هو ابتعاد الإنسان المغترب عن السياسة السائدة فـــي مجتمعـــه نظـــراً لتعارضها مع سياسة الفرضية فلا تعجبه أي سياسة حتى ولو كانت صحيحة ، ولا يـــستطيع أن يشارك برأيه ولا بصوته

– والاغتراب الاقتصادي : يؤدي الاغتراب الفلسفي والاجتماعي والـــسياسي إلـــى الاغتـــراب الاقتصادي أي يصبح الإنسان لا فائدة منه إلى تنمية مجتمعه اقتصادياً (أي يصبح الإنسان عاطلاً وعبئاً على مجتمعه)

انظر : إبراهيم محمد المغازي – مجلة النفس المطمئنة – القاهرة – مطابع الأهرام – العدد ٧٩/ ص ١٦.

الغربة لا تفارقه ، فهـو يحملها بداخله ، وهي التي تحمله في ضياعها ، ومن هنا يصبح الوصال بين الغريب والآخرين أمراً مستحيلاً ، وهـذا الأمر مرجوعه إلى تشاؤم المتنبي وكفره بالناس .

العوامل الأساسية ذات الأثر المباشر في تعميق الشعور بالاغتراب عند أبي الطيب المتنبي:

١- حياته الفقيرة.

٢- طموحه .

٣- ازدواجية التأثير في شخصية أبي الطيب المتنبي .

٤- تشاؤمه .

ظاهرة الاغتراب في الأدب العربي

لقد وجدت ظاهرة الاغتراب في الأدب العربي منذ القدم ، أما إذا أردنـا أن نقارن ظاهرة الاغتراب بالآداب الأخـرى لا نجـدها ، حيـث إن الآداب الأوربية أو الأدب الأمريكي حـديث النشأة ، يرتابها التقليد للآداب اليونانيـة وغيرها بخـلاف الأدب العربي الذي لا يزال في قمة البيان والفصاحة ، وهو لا يبدو متأثراً من حيث الشكل والمضمون بالآداب الأخرى ، ولعل ما نجده في شعر شعـراء العربيـة من الصعـاليك يمثل ضرباً صريحـاً من الاغتراب ، وحدث هذا الاغتراب حينما رفضت القبيلة مجموعة من ذويها لأسباب تراهـا خروجاً عن العرف والعادات القبلية [١].

(١) محمد خليفة حسن – التفكير التاريخي والحضاري عند الشعوب العربية السامية القديمـة – القاهرة ، سنة ٢٠٠٠/ ص ٢٥٢.

وأصبح هؤلاء المرفوضون غرباء بالفعل عن قبيلتهم وعن مجتمعهم مغتربين بأفكارهم مثل شاعرنا حيث إن اغترابه يعد اغتراباً فكرياً ، ويرى أنه فوق كل الناس ، أما شعراء الصعاليك فأصبحوا يرفضون كل ما ألفوه من قبل من ذويهم ، والخروج عن الوطن والابتعاد عن الأهل، وهذا الأمر عرفته الشعوب في الماضي فراراً من الأذى ، وطلباً للرزق وكذلك هروباً من الفقر الذي يعيشون فيه كما هو حال المغتربين الذين يبحثون عن العيش الوفير في الدول الغنية في العصر الحديث ، وهذا يُعد اغتراباً مكانياً (من مكان لآخر) وزمانياً (في فترة زمنية معينة)، ولكن هناك اغتراب جسدي ، وآخر فكري، حينما يشعر الإنسان منا بعدم الاندماج في المجتمعات الأخرى .

وفي خضم هذه الهجرة المتعددة ظهر الكثير من الأدباء والمفكرين الذين انعكس الاغتراب في أعمالهم بطرق شتّى وغير بعيد عن هذا المضمون حفظ لنا الشعر العربي القديم (من قبل الإسلام) زمرة من الشعراء كانوا أرضاً خصبة للنوائب ، ففضلوا الانعزال عن الناس ليعيشوا حياة جديدة تختلف عن حياتهم في الماضي ، ويصبحوا مغتربين .

ويبدو لنا هذا الاغتراب واضحاً جلياً في عدة مواضع في شعر هؤلاء الشعراء، فنجد قصائد مختلفة من حيث المضمون، وذلك المضمون الموحد عند بقية الشعراء الآخرين وكذلك من حيث الشكل، لكون تلك القصائد تفتقر إلى النظام التقليدي المألوف، ولو افترضنا طرح السؤال على نقاد الشعر من طبقات الأوائل لعدوها غريباً شكلاً ومضموناً.

وقد نحس منهم شيئاً من ذلك عندما نعتوا أصحاب هذه القصائد بالصعاليك؛ لأن الصعلوك بعيد عن المعنى المألوف لغةً هو الذي أصبح يتصرف في الواقع تصرفات غريبة عن مجتمعه ، أو أن القبيلة هي التي

أصبحت لا تُطاق بتصرفاتها الغريبة بالنسبة للشاعر، عندئذٍ خرج هؤلاء عن أعراف القبيلة فأصبحوا غرباء ، وكان لابد أن يأتي هذا الأدب غريباً بشعور أهله نحوه، ويبقى بعض هذا الاغتراب مقصوداً أنفةً منهم ، لكن بعضهم الآخر فيه تحسر ولوعة ؛ لكونهم خرجوا مرغمين ، وذلك بعد كل ما لحقهم من الأذى والسوء من أقوامهم ، فهم في حيرة من أمرهم بين الرحيل والانتماء والولاء للقبيلة كما عبر الشنفرى في لاميته قائلاً :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل (١)

وواضح تماماً من عجز البيت رغبة الشاعر في الهجرة والبعد والتخلص من عادات القبيلة ، وأنه يهيم على وجهه في الأرض بعيداً عن ضرر قومه ، وقد يكون هذا المعنى قريباً من قوله تعالى " وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً" (٢).

فالقصد إلى المغرب أو المشرق، والهجرة في الأرض تعني الاغتراب بعينه، وفي الآية السابقة تشابه العرب واليهود فيما يتعلق بالاغتراب بأوطانهم، ونجد في الشطر الثاني من بيت الشنفرى تأكيده على فكرة الاغتراب من أجل الهروب من أذى الآخرين ، وبغضهم ، وكراهيتهم حتى يصل إلى الهدف المنشود ، وهو الانعزال التام عن هؤلاء ؛ لأن في الانعزال خلاصاً من الناس مع راحة البال.

(١) الشنفرى- ديوانه -جمعه وحققه وشرحه-د.أميل بديع يعقوب -دار الكتاب العربي -بيروت سنة ١٩٩٦/ص٥٨

(٢) سورة النساء : جزء من الآية ١٠٠.

ثم يستطرد في البيت الذي يليه ليؤكد مرة أخرى أن اعتزاله للناس كان بقصد ، وليس سبيله إلى ذلك كان نتيجة الإرغام حين يقول :

لعمرك ما في الأرض ضيقٌ على امرئٍ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل[1]

نستشف من البيت السابق أنفة الشاعر حينما يختار ألم الغربة ، وضيق الشعور بالاغتراب عن قصد على العشيرة والأهل ، وعلى هذا النحو يستمر الشاعر واصفاً لحياته الغريبة قائلاً :

ولي دونكم أهلون سيد عملّس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل [2]

من البيت السابق نفهم معنيين :

الأول " الهجاء حين يشير الشاعر إلى تصنيف سرب من الحيوانات أصبح عشيراً مؤانساً له بديلاً عن بني قومه ، فوجد في الأسد والذئب والنمر أصدقاء له ، فأصبحوا أهلاً ، وهم أنسب له من غيرهم.

الثاني : العتاب المر الذي يلمح به من خلال صريح كلامه ، معربًا عن حياةٍ أصبح أهله حيوانات متوحشة

ومما سبق اتضح لنا من أبيات الشنفرى السابقة أن ظاهرة الاغتراب جسديا أو معنوياً ليست حديثة العهد، وإنما جذورها موجودة في أعماق التاريخ الأدبي للإنسان العربي القديم .

(١) الشنفرى – ديوانه / ص ٥٩.

(٢) المصدر السابق / ص ٥٩.

فالاغتراب عند الشنفرى بدأ جسدياً ، وتولد عنه اغتراب آخر أمرّ وأشد ضرراً من الأول ؛ لأنه يجعل صاحبه يعيش في حياة أخرى يركن إليها هارباً مما هو فيه .

ويبدو هذا الشعور أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً في صاحبه ، حين يمل من الواقع الذي يعيش فيه ، وينكر على المجتمع تصرفاته الرعناء ، ربما بعد أن طال انتظاره ملتمساً التفاتة مفعمة بالحنان إلى شخصه ، ولكن مع مرور الزمن انقلب الضياء ظلاماً في عينيه وأصبحت الدنيا تبدو له بمنظار غير الذي ألفه من قبل ، ونفر نفوراً من هذا العالم المليء بالمتناقضات ، وفضّل الانقلاب على أهله بعد اليأس منهم ، والتأكد من ضلالهم وطغيانهم ألا وهو شاعرنا المتنبي

العوامل الأساسية ذات الأثر المباشر في تعميق الشعور بالاغتراب لدى المتنبي

١- حياته الفقيرة

ولد أبو الطيب أحمدبن الحسين الملقب بالمتنبي بالكوفة في حي من أحيائها، معروف بحي كندة .وكانت ولادته سنة ٣٠٣هـ على وجه التقريب "قال علي بن حمزة البصري :سألت أبا الطيب أحمدبن الحسين المتنبي عن مولده فقال :ولدت بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلثمائة وهذا على وجه التقريب لا التحقيق ونشأت بالبادية والشام [١]

ولا نتوقع أن يفصح لنا التاريخ عن كل ما نود معرفته عن طفولة الشاعر، مما له ثر في شاعريته وذوقه الفني .وبحسبه أنه أنبأنا :"اختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً".[٢]

(١) زيادات ديوان شعر المتنبي –عبد العزيز الميمني – الراجكوتي السلفية سنة ١٣٤٦ ه/ص ٨

(٢) –خزانة الأدب –للبغدادي–مط.الأميرية –بولاق–١٢٩٩هـ/٢:١٣٧

ويفهم مما سبق ذكره اللون المذهبي الذي يدين به ذووه والذي حاولوا أن ينشئوه عليه منذ نعومة أظافره، وهو المذهب العلوي الذي كان يناوئ الخلافة العباسية القائمة آنذاك، ويعمل على القضاء عليها ووراثة الملك من بعدها .ولعل من العجيب أن يوجد بالكوفة –في هذه الآونة التي يتولى فيها أمور المسلمين خليفة عباسي –كتاب يدين بالعلوية وينشر مبادئهابين المتعلمين ، ولكن العجب يزول إذا ما علمنا أن الخليفة العباسي لم يكن له من الأمر شئ[1].

أضف إلى ذلك كله أن الكوفة كانت مهد العلوية ومعقل سدنتها منذ بدأت في أفق السياسة مسألة أحقية علي –كرم الله وجهه–في الخلافة [2].

ورحل صاحبنا من(رأس عين) حيث مدح سيف الدولة، متخذاً طريقه إلى الشام مارًا بحران ثم منبج، ثم أنطاكية واللاذقية وحماة وحمص وبعلبك ،وتردد بين هذه المدن حتى قبض عليه. وكانت هذه البلاد نفسها منازل من منازل الدعاة العلويين الذين كانوا أصحاب سياسة ودهاء في دعوتهم إلى قلب الخلافة العباسية، وإقامة الخلافة العلوية الخالصة ،وكانت الأعاجم فى الشرق، والموالي الذين بلغوا غاية السلطان في خدمة الخلافة العباسية، بدأ مع العلويين على الدولة العباسية. وكانت هذه البلاد للفاطميين أصحاب الجيوش والسلطان بالمغرب، وكان هؤلاء الدعاة يسعون جهد لسعي لضم العلويين إليهم ، واستمالة الولاة على اختلافهم إلى مناصرتهم، ليتم لهم دخول الشام دون معارضة بعد فتح مصر–وكانوا يعدون له العدة –ثم يقفون وجهاً حيال الدولة العباسية بالعراق، وكان قد تم لهم أمر عظيم في ما وراء دجلة والفرات، وبذلك تسقط الدولة العباسية، وتقوم على أنقاضها الدولة العلوية الفاطمية وكأني بالمتنبي في طريقه يظهر في القبائل والمدن أمر نسبه ،

(١) الكامل في التاريخ–لابن الأثير –مط.المنيرية –مصر –١٣٤٩هـ/:٥:٨

(٢) حركات الشيعة المتطرفين –د.جابر العمر (د.ط) (د.ت) /ص١١

ويذيع بينهم أنه علوي الأصل شريف النسب ، محتالاً لذلك بالدهاء ،مجتهداً في اتخاذ العضد قبل أن يعلن أمره إعلاناً صريحاً،لئلا يواقعه العلويون وينزلوا به كيدهم الذي يكيدون له[1].

ويرى الباحث أن شاعرنا كان فقيراً ، حيث إنه كان كثير الأسفار ما بين الشام والكوفة وبغداد مادحاً الخلفاء والأمراء والقوّاد بُغية التكسب أو الحصول على ولاية، "...واتصل بواليها كافور، ومدحه؛ طمعاً في أن يوليه إحدى الأمارات، ولكن كافوراً خيب ظنه؛ حين رأى غطرسته ، وكبره، وعرف طموحه، وسعة مطامعه؛ فحنق المتنبي عليه، وهجاء أشنع هجاء، وفر غاضباً سنة ٣٥٠ هـ إلى بغداد، مقر الخليفة العباسي، فلم تطل بها إقامته؛ إذ تملأ عليه حساده، ومنافسوه من الشعراء والأدباء...." [2] وحينما ذهب إلى كافور الإخشيدي في مصر بعدما أُهين في فردوسه الأرضي عند سيف الدولة الحمداني فمدح كافور نفاقاً ورياءً ، إذ كان شعوره في قرارة نفسه أنه يتكلف في مدحه؛ لأنه يعلم أن كافور أمير مماطل، ذو مكرٍ ودهاء، ولذا كان يوجه إليه كثيراً من الأبيات التي تصلح مدحاً وذماً فأقام في مصر أربع سنوات ونصف استطاع أن يمدح كافور في قصيدته قائلاً :

وأخلاق كافور إن شئت مدحه وإن لم أشأ تُملى عليّ وأكتب

إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه ويمم كافوراً فما يتغرب

فتى يملأ الأفعال رأياً وحكمةً ونادرة أيان يرضى ويغضب

إذا ضربت في الحرب بالسيف كفه تبينت أن السيف بالكف يُضرب

تزيد عطاياه على اللبث كثرةً وتلبث أمواه السماء فتنضب

(١) المتنبي-محمود محمد شاكر -(د.ط)-سنة ١٩٧٧م/ص٢٢٢-٢٢٣

(٢) المتنبي وشوقي – دراسة ونقد وموازنة – عباس حسن -ط(١)- سنة ١٩٥١ / ص ٢٤.

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فإني أغني منـــذ حين وتشرب

إذا لم تنط بي ضيعـــةً أو ولايةً فجودك يكســوني وشغلك يسلب

يضـــاحك في ذا العيد كل حبيبه حـــذائي وأبكي من أحب وأندب

أحـــن إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتـــاق عنقاء مغرب

فإن لم يكن إلا أبـــو المسك أوهم فإنك أحلى في فـــؤادي وأعذب

وكل امرئٍ يـــولي الجميل محبب وكل مكـــانٍ ينبت العز طيب [1]

من الأبيات السابقة نلاحظ أن الشاعر مدح كافور خاصـــة ، قـــائلاً : إن أخلاقه من الظهور والنباهة بحيث تنبئ عنه ،فهي تملى عليه الفضائل ، وما عليه إلا أن يثبتها ، وهو كريم معطاء ، يؤنس بعطاياه من يقصده ويتجه إليـــه ، فمـــن يتقرب إليه يشعر كأنه بين أهله وذويه وهو شاب قوي ذو عقـــل وحكمة ونوادر غريبة يعجز عنها سواه ، وهذه الصفات تلازمه في رضاه وغضبه، وهو شـــجاع مقدام يضرب بقـــوة الكف لا بجودة السيف وهو أكرم من السحاب، لأن عطايـــاه لا تنضب بكثرتها، أما ماء السحاب فينضب إذا مكث في الأرض لأنهـــا تمتـــصه وتبتاحه، والشمس تبدده وتقضي عليه، ويستجـــدي الـــشاعر ممدوحـــه قـــائلاً: إن مـــديحي يطربك كما يطرب الغنـــاء الشارب، فهل في الكـــأس بقية أشـــربها؟ وإذ لم تقطعني ضيعة أو تفوض إليّ ولاية فإن ما تكســـوني إياه بجـــودك وكرمـــك يسلبه انشغـــالك وانصـــرافك عني، وفي العيـــد يضحك كـــل الأحبة بينما أنا أبكي أحبـــابي وأنـــدبهم على البعد، وهـــو يستعطفه ويطلب العوض نظير مـــا يـــلاقيه في الغربـــة، وهـــو يشتـــاق إلى أهـــله مع بعـــد المســـافة بينه وبينهم ، وهـــو لا

(١) ديوان المتنبي – شرح البرقوقي – ط : دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ، سنة ١٩٨٠ ص ١: ٣٢.

يخشى الغربـــة لأنه يفضل البقـــاء مع كافـــور عن العيش مع أهله ، وقد أحبه لأنه يُسدي إليه الجميل والمعروف بمكان تطيب الإقامة فيه .

٢- طموحه

إذا كان المتنبي قد تطلع إلى الإمارة والمجد ، فإن الحاقدين استغلوا ذلـــك استغلالاً أســـاء إلى الشـــاعر، فقـــد اتهمـــوه بادعـــاء النبـــوة وخلعـــوا عليـــه لقب "المتنبي" لتأكيد زعمهم واجتهدوا في إشاعة هذا اللقب حتى اشتهر بـــه ، وإن كان كافور الإخشيدي يعلم في قرارة نفسه أن اللقب منتحل عليه ، ولكن كان يردده كثيراً ليكسر كبريـــاءه ، ويجهض طموحه وتطلعاته إلى المعالي إذ كان يعلـــم أن خطره الحقيقي كان يكمن في طموحه وغروره ، وتطلعاته إلى الإمارة ، حيـــث إن كافور قد وعده بولاية بعض أعماله ، فلما رأى تعاليه في شعره ، وسموه بنفـــسه خافه ، وحين عوتب فيه قال : يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد – صلى الله عليه وسلم – أما يدعي المملكة مع كافور ؟ فحسبكم[١].

ولكن قصة ادعائه النبوة تباينت حولها الآراء ، فيرى بعض النقاد والمـــؤرخين إلى أنه ادعى النبوة.[٢]

أما الدكتور شوقي ضيف : فيرجح أن قصة ادعائه النبوة منتحلة عليـــه ، وكأن من انتحلوها أرادوا أن يفسروا بها لقبه "[٣].

---

(١) ابن خلكان – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – (د. ت) – (د. ط) / ص ١: ٢٢.

(٢) المصدر السابق / ص ١: ٢٢.

(٣) شوقي ضيف – الفن ومذاهبه في الشعر العربي – دار المعارف – القاهرة – (د. ت)/ ص ٣٠٤.

ويميل الباحث إلى رأي محمود شاكر فيرى- كذلك- ، قصة ادعائه النبوة دسيسة دسها له حاسدوه – وما أكثرهم – بُغية القضاء عليه ؛ حتى لا يزاحمهم في بلاط الأمراء ، وخاصةً أنه شاعر طموح ، ذو ذكاء وفطنة ، مع كونه من أسرة متواضعة ، فنراه حينما يتحدث عن حاسديه يقول :

يريد بك الحساد ما الله دافع وسمر العوالي والحديد المذرب

ودون الذي يبغون مالو تخلصوا إلى الشيب منه عشت والطفل أشيب

إذا طلبوا جدواك أعطوا وحكموا وإن طلبوا الفضل الذي فيك خيبوا

ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها ولكن من الأشياء ما ليس يوهب

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

وأنت الذي ربيت ذا الملك مرضعاً وليس له أمّ سواك ولا أب

وكنت له ليث العرين لشبله وما لك إلا الهندواني مخلب

لقيت القنا عنه بنفسٍ كريمة إلى الموت في الهيجا من العار تهرب[1]

نلاحظ أن الشاعر قال : إن الحساد يريدون بك المكروه ، ويتمنون زوال ملكك وفساد أمرك ، ولكن ذلك لن يحدث لأن الله يدفع شرهم عنك ، وأنت تدفعه عن نفسك بالسيوف والرماح ، وسوف يموتون قبل أن يروا فيك ما يبغون ، ولو قدر لهم أن يعيشوا لشابت أطفالهم من شدة ما يقاسون ، ثم يقول له : أنت سمح كريم تعطي حسادك من المال بقدر ما يحكمون به أنفسهم ، لكنهم إذا حاولوا الوصول إلى الفضل الذي آتاك الله إياه فإنهم لا يدركونه ؛ لأنه شيء آثرك الله به ، ولو كانت العلا موهوبة لوهبتها لهم ، لكنها شيء تختص به لنفسك.

(١) ديوان المتنبي – شرح البرقوقي – / ص ١: ٣٢.

ومن الظلم أن يحقد عليك هؤلاء الجاحدون المنكرون ؛ لأنهم يتقلبون في نعمائك ومنهم ولي العهد علي بن الأخشيد الذي ربيته بعد وفاة والديه ، ثم أنكر هو الآخر نعمتك بعد أن كنت له كالأسد لشبله تحمي ملكه ، وتحمل عنه الرماح بشجاعةٍ نادرة بحيث كنت تهرب في الحرب إلى الموت ، ولا ننسى أن شاعرنا كان من شعراء الندوة السيفية قبل أن يغادر من بلاط الدولة الحمدانية إلى كافور الإخشيدي ، وهو الذي شهد لأبي فراس الحمداني بالتقدم والتبريز(١).

وقد جاءت غرر قصائده في مديح سيف الدولة ، واعتبرها شوقي ضيف في الذروة لا من شعره وحده ، بل من الشعر العربي عامة ، فقد صور فيه وقائعه وحروبه تصويراً تشيع فيه البهجة بالنصر ، والاعتزاز بالعرب والعروبة (٢).

ومن طموحه حرصه على العلم والمداومة عليه ،يقول طه حسين :"فقد زعم الرواة أن الصبي كان يختلف إلى وراق الكوفة يجلس عنده وينظر فيما يحضره من الكتب ، فأقبل ذات يوم رجل ،ومعه كتاب لأبي عبيدة في اللغة ،يقع في ثلاثين ورقة، وكان الرجل يعرض كتابه للبيع ،فأخذه الصبي وجعل يطيل النظر فيه، حتى ضاق به البائع وقال له :يا هذا !إنما جئت بهذا الكتاب لأبيعه، وإنك إذا أردت حفظه واستقصاءه احتجت إلى أيام .قال الصبي :فإذا كنت قد وعيت ما فيه ؟قال البائع فهو لك .ثم امتحن القوم الصبي فإذا هو قد حفظ ما في الكتاب.

وكان المتنبي كثير التنقل والترحال ،يقول طه حسين :"وينبغي أن نلاحظ هنا أن المتنبي حين ترك شمال الشام طرق أرضاً جديدة ،فيها سلطان سياسي جديد

(١) السيد محمد ديب – من روائع الأدب العربي في العصرين العباسي الثاني والأندلسي / ص ٣٧.

(٢) شوقي ضيف – الفن ومذاهبه في الشعر العربي / ص ٣٠٦.

لم يعرفه ولم يخضع له من قبع فيل .فقد خضع في العراق للسلطان العباسي ، وخضع في شمال الشام لسلطان مضطرب بين العباسيين والإخشيديين الذين كانوا يغيرون عليه من حين إلى حين،ومضطرب كذلك لهذه الغارات التي كانت متصلة بين المسلمين والروم على الحدود ،ثم مضطرب آخر الأمر لهذا الطموح الذي كان يملأ نفوس الأمراء المتفرقين في بادية سوريا الشمالية وحاضرتها ،والذين كانوا يحكم هذا الطموح ينزعون إلى السيادة والملك ، ويترددون بين السلطان العراقي والمصري ملائمين بين منافعهم العاجلة المؤقتة وظروف إقليمهم المختلفة المضطربة"[1]

٣- تشاؤمه ويأسه

فطر الإنسان على حب الاجتماع ، يتأثر بمن حوله منذ تكوينه الجنيني في رحم الأم إلى لحظة وفاته ، وهذه العلاقة التأثيرية تطال الشاعر بصورة أعمق من الإنسان العادي لما يتسم به الشاعر من الإحساس المرهف والوعي الذي يجعل منه مرآة تنعكس عليها الحياة لصورة أكثر شفافية وتعبيراً صادقاً عما يدور فيها من أحداث خاصة وعامة.

فالاغتراب لم يكن بسبب الهوة التي تباعد بين الشاعر ومحيطه الاجتماعي الذي غالباً ما يقف حجر عثرة أمام الشاعر التائق إلى تحقيق طموحات وأحلام تدفع به إلى الاغتراب الذي يتخذ أشكالاً منها :

١- الغربة الواقعية : الحقيقية كما في غربة الشاعر " امرئ القيس " في رحلته الثأرية طلباً لاستعادة ملك أبيه الذي قضى نحبه دون تحقيق حلمه المنشود

(١) مع المتنبي -طه حسين -ط(١٣)--دار المعارف -القاهرة -(د.ت).

٢- الغربة الاجتماعية : التي تتخذ شكل رفض اجتماعي تؤدي إلى غربة فرديـة وانقطاع عن الناس مثلما فعل أبو العلاء المعري -رهين المحبسين - الـذي فرض على نفسه غربة ذاتية ، فكان سلوكه تجسيداً لتلك الغربة الاجتماعيـة قولاً وفعلاً

٣- الغربة النفسية : وهي ما تمثلت عند شاعرنا في شعره وشخصيته على حـد سواء بترفعه على أُناس عصره ، وشعوره ببعده عنهم وتميزه مـنهم رغـم وجوده في الحياة بينهم ؛ لأن البحث عن العظمة قد يصبح فكـرة مـسيطرة تلتهم صاحبها ، وقد يكون لها صدى بعيدا في صورة الذعر والكآبة واليـأس والغضب ، وهذا ما كان يسيطر على شاعرنا في حياته الأخيرة من النزعـة التشاؤمية ، أما إذا حاولنا أن نبين أسباب تشاؤمه ودوافعـه فـإن أول مـا سيطلعنا هو الأوضـاع السياسية فقد كان العالم الإسلامي ككل نهباً مقسماً بين أمراء أغلبهم من الأعاجم لا يستحقـون ما نالوه ، وأصبح الشعار السائد في هذا العصر " الدنيا لمن غلب" فقد ولد المتنبي وسط هـذا الخضم في بيئةٍ لم تكن سليمة فقد شهدت النهب والسرقة والغارات .

أما إذا نظرنا إلى أول مظاهر التشاؤم في شعره ، نظرته إلى الدنيا وأهلها، فقد عرك المتنبي الحياة وعركته ، وابتُلي فيها وذاق منها الشهـد والعلقم ، ولكـن علقمها كـان أكثر من شهـدها ولم يكره المتنبي الحياة ، بل ظل مقبلاً عليها على الرغم مما ابتُلي به ، فلم يكن يكبـو حتّى ينهض ليستأنف السير مـن جديـد ، وهـو يعترف صراحةً بأنه محب للحيـاة ما دامت مقبلة عليه إقبال الشيـخ المسن لا يملها إلا حينما يضعف ، فيوصم أهلهـا بالعيـوب العامة الشاملة ، بكـونهم موتى في قوله :

في الناس أمثلة تـــدور ، حياتها كمماتها ، ومماتها كحياتها [١]

هبت النكاح حـــذار نسل مثلها حتى وفرت على النساء بناتها

ويصفهم بأنهم سقم في قوله :

وإنما نحن في جيلٍ ســـواسية شر على الحر من سقم على بدن [٢]

ويصفهم بأنهم عـــدم وفساد ، وعدوى ، وهـــراء كـــالكلام بـــلا معـــان، وزور[٣]، ويصور أهل عصره غنماً ، وفي موضع يحطهم عن درجة الكلب [٤]

ويشبه كافور بالغراب ومن حوله بالرخم والبوم في قوله :

كـــأن الأسود اللابي فيهم غرابٌ حوله رخم وبوم [٥]

ويصفهم بالجهل والسفه في قوله :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

من لي بفهم أهيل عصر يدعي أن يحسب الهندي فيهم باقل[٦]

وتارةً يصفهم بصفات مثل اللؤم ونكران الجميل فمن الأول قوله عن الناس:

---

(١) ديوان المتنبي –ت /عبد الوهاب عزام/ ص ١٧٤.

(٢) ديوان المتنبي – ت/عبد الوهاب عزام/ ص ١٥٥.

(٣) ينظر الديوان– ت/عبد الوهاب عزام / ص ١٥٢، ٥٤٥ / ٥٤٩ ، ٥٦١ ،٥٨٦.

(٤) ديوان المتنبي – ت /عبد الوهاب عزام/ ص ٣٢، ٤٨.

(٥) الديوان –ت/عبد الوهاب عزام/ ص ٤٨٣، واللابي نسبة إلى اللوبة ، والنوبة ، وهمـــا فـــي الأصل الأرض التي ألبستها حجارة سود – ينظر شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٤/ ٢٨٢.

(٦) ديوان المتنبي – ت/عبد الوهاب عزام/ ص ١٨٨.

عليك إذا هزلت مع الليالي وحولك حين تسمن في هراش [1]

وذكر الهراش تخسيساً لهم لأنه من فعل الكلاب

ولم يسلم من سب شاعرنا وقذفه لا الصغير ولا الكبير، فوجه إلى الملوك مثلما وجه إلى عامة الناس من عيوب نفسية ونقائص أخلاقية كشف من خلالها عن عيوب ومساوئ ملوك وسلاطين أهل عصره دون مواربة منه أو نفاق، وهذا يتضح قبل اتصاله بأمير حمدان سيف الدولة الحمداني وغيره من ملوك الشام، فقد كان ينفث عن صدره، فيبيح بما لديه من فساد مستشري في البلاط الحاكم، حيث إننا نلاحظ أنه يخرج عن النهج التقليدي في أغلي قصائده إلى مقدمات ذاتية تغنى بها الشاعر بكل ما يحس من احتقار لهؤلاء الذين تبوءوا أعلى المناصب والمراتب على فساد الأخلاق وضعف في النفوس، فهو يترفع عنهم؛ لأنه يرى عقولهم ضئيلة، ولا ينفع فيهم نصح، فيقول:

لا أقتري بلداً إلا غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن

ولا أعاشر من أملاكهم أحدا إلا أحق بضرب الرأس من وثن

إني لأعذرهم مما أعنفهم حتى أعنف نفسي فيهم وأني

فقر الجهول بلا قلبٍ إلى أدب فقر الحماربلا رأسٍ إلى رسن[2]

ويذم غفلتهم ، وصغر هممهم ، وضعف شأنهم في قوله :

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

---

(١) شرح المشكل من شعر المتنبي ، لابن سيده – تحقيق / مصطفى السقا ، ود / حامد عبد المجيد – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧م/ ص ١٦٦. والهراش: محاربة الكلاب بعضها من بعض.

(٢) الديوان –ت/عبد الوهاب عزام/ ص ١٥٥، وشرح البرقوقي ، ٣٤٢/٤.

اقتري بلداً: أي لا أسير ولا أمرُّ بها، الغرر: الخطر، مضطغن: حاقد، أني: أفتر، الرسن: الحبل الذي تُقاد به الدابة

بأجسامٍ يحر القتل فيهـــا وما أقرانها إلا الطعام[١]

أما بعد اتصاله ببعضهم، فقد جاء نقده فـــي صـــورة موازنـــات باســـتثناء ممدوحه –خاصة سيف الدولة – من نقده، فوصف ممدوحه بأنه يحلم، أمـــا بقيـــة الملوك فإنهم جهلاء فيقول :

ولم نر ملكاً قط يدعى بدونه فيرضى ولكن يجهلون وتحلم[٢]

وممدوحه يسعى دائماً إلى المجد والكمال والتمام والشرف ، أما غيره من الملوك فمتقاعسون قعود عن كل شرف فها هو يقول في سيف الدولة :

فإن حظك من تكرارها شرف وحظ غيرك منها الشيب والكبر

قعد الناس كلهم عن مســـا عيك وقامت بها القنا والنصول[٣]

وممدوحه يهابه الناس، وساد في الأرض الأمن والأمان، أما غيره فقـــد بلغوا من الوهن من الوهن والهوان، وساد الخوف والاضطراب في بلادهم، فيقول مادحاً عضد الدولة:

أروض الناس من ترب وخوف وأرض أبي شجاع من أمان[٤]

وإذا أحسن الصنيع في مدح ممدوحه سيف الدولة، فكذلك أحسن الصنيع في هجاء عدوه كافور، حيث إن كافور كان يقيده، ويمنيه بمواعيد كاذبة؛ خوفـــاً مـــن هجائه، فقال فيه:

أبا النتن كم قيدتني بمواعد مخافة نظم للفؤاد مضيع[٥]

---

(١) الديوان –ت/عبد الوهاب عزام/ص ٩٢، وشرح الواحدي ، ص ١٦١.

(٢) الديوان –ت /عبد الوهاب عزام/ ص ٢٩٥ ، وبدونه : أي تأتي بدون قدرة واستحقاق .

(٣) الديوان ت/عبد الوهاب عزام / ص ٣٥٦ .الديوان ت /عبد الوهاب عزام / ص ٥٥٩.

(٤) الديوان ت /عبد الوهاب عزام / ص ٥٥٩.

(٥) شرح الواحدي / ص ٨٥٧.

وكذلك نلاحظ أن المتنبي يكرر هذا الهجاء في أكثر من موضع قائلاً :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يُقال عظيم القدر مقصود[١]

وأخذ يظهر المتنبي وجهه القبيح ، فيقول :

صار الخصي إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود [٢]

ونقد الشعراء ، ومن نقده للشعراء نقد المألوف الذي تعارف عليه الشعراء ، وجروا عليه طيلة عصور متلاحقة ، وكأنهم في إطار فني واحد ، مثل البدء بالمقدمات الطللية ، ومدح الآباء والأجداد ، فيقول :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم [٣]

وكذلك تعرض للنكاح والنسل ، فذكر أنه خاف من النكاح حذار النسل ، والولد ما هو إلا علة لا تشفي النفس ، ولا يروي الغليل ؛ لأنه ريثما يموت ، وأن الدهر لا يستحق أن يشتاق إلى النسل لأنه يفجع الوالد بولده ، وإن بقي بعده لقي من مكارهه ، ونغص عليه عيشه ، فيقول :

في الناس أمثلة تدور حياتها كمماتها ومماتها كحياتها
هبت النكاح حذار نسل مثلها حتى وفرت على النساء بناتها [٤]

ويقول المتنبي لأبي عبيد الخصيبي القاضي:

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

---

(١) الديوان / ت /عبد الوهاب عزام /ص ٤٨٧

(٢) الآبق: الهارب من سيده، بها : الهاء فيها تعود على مصر، الديوان ت/عبدالوهاب عزام/ ص ٤٨٦.

(٣) الديوان ت /عبد الوهاب عزام /ص٨٤.

(٤) الديوان ت /عبد الوهاب عزام ،ص ١٧٤.

وإنما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن

حولي بكل مكان منهم خلق تخطى إذا جئت في استفهامها بمن[1]

وحالة المتنبي النفسية الصعبة جعلته يتصور كل الناس يحملون الحقد والضغينة، وجعلته يتوقع الخطر في أي لحظة من هؤلاء المتربصين وحتى الملوك استحقوا القتل، لأنهم صور بلا معنى وراءها ثم التفت المتنبي التفاتة نفسية رائعة فقال إني أجعل لهم عذراً فيما ألومهم به من الغفلة واللؤم حتى أعود إلى نفسي في لومهم والعذر أنهم جهال والجاهل لا يلام على ترك المكارم، وقد ضرب لهؤلاء الجهال مثلاً رائعاً مبدياً تعجبه بأن كيف يحتاجون للأدب وهم لا عقول لهم كالحمار كيف ما لم يكن له رأس يحتاج إلى الرسن، وواضح من لغة الشاعر شدة الغيظ من هؤلاء الأعداء وعمق ما لقى من تربصهم له ومحاولة صده عن المعالي وسد طرقها عنه.

وهناك مثال آخر على معاناة شاعرنا الكبير ممن لا يوافقون طبعه حيث يقول مادحاً علي بن محمد بن سيار مستذكراً ما لقي من الحساد ممن آذوه وهو بطبرية وأنطاكية حيث يذكر الليل قائلاً:

أقلب فيه أجفاني كأني أعد به على الدهر الذنوبا

وما ليل بأطول من نهار يظل بلحظ حسادي مشوبا

وما موت بأبغض من حياة أرى لهم معي فيه نصيبا

عرفت نوائب الحدثان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيبا[2]

(١) ديوانه-شرح البرقوقي /٣٤١:٢

(٢) ديوانه -شرح البرقوقي/٢٦٧:٢

وهل أكبر من هذه المعاناة التي جعلت المتنبي تستوي عنده حياته مع حساده بموته وقد عانى المتنبي في معاملة من لا يوافقون طبعه كبير المعاناة ولا أدل على ذلك من بيته الذائع الذي ذكره في مدحه لمحمد بن سيار التميمي قائلاً:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد(١)

وهناك مثال آخر في رثائه لجدته وقد شددفيها الذم على من لا يوافقون طبعه قائلاً:

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم قدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد(٢)

ولا شك أن المتنبي أخفق في الوصول إلى تحقيق حلمه لتحقيق الإمارة والسيادة والرئاسة وخاصة بعد عودته من عند كافور، فرجع يعزي نفسه ويختلق التعليلات النفسية لهذا الفشل قائلاً:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن(٣)

وزادت شكوته من الدهر والأيام قائلاً:

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها ولا أتعتب(٤)

ومرد هذه الشكوى إلى حالته النفسية بعد يأسه من إجابة طلبه من قبل كافور فأوضح عن ذلك رغم أن القصيدة أنشاها لمدح كافور بعد أن أعطاه ستمائة دينار ذهباً.

---

(١) السابق /٢:٩٣

(٢) السابق /٢:٩٣

(٣) السابق /٤:٣٦٦

(٤) ديوانه – شرح البرقوقي /١:٣٠٤

وقام المتنبي بتعزية نفسه نتيجة عدم تحقيق المطالب قائلاً:

لا تلق دهرك إلا غير مكترث مادام يصحب فيه روحك البدن

فما يديم سرور ماسررت به ولا يرد عليك الفائت الحزن(١)

هذه هي النزعة التشاؤمية عند شاعرنا ، حتى وصل الأمر من تشاؤمه تعزية نفسه .

مظاهر الاغتراب في شعره

أشرنا فيما سبق إلى أن تحولاً مفاجئاً طرأ فجأة على حياة المتنبي قلب الأمور كلها رأساً على عقب ويتمثل هذا حينما قصد كافور في مصر سنة ٣٤٦هـ ، ومدحه نفاقاً ورياءً ، وكان المتنبي يبغي من وراء مدائحه في كافور أن يقطعه ضيعة أو ولاية ، ولم يكن يبغي مالاً فحسب ، وهذا واضح من قوله :

وإذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب (٢)

كما ألمح إلى هذا الأمل من قبل بقوله :

إذا كسب الناس المعالي بالندى فإنك تعطي في نداك المعاليا

وغير كثيرأن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا (٣)

(١) السابق/٤:٣٦٤

(٢) السابق/ ١:٣٠٧

(٣) السابق /٤:٤٢٧

ولكن خـــاب رجاؤه، وتبخر أمله، ولم يجد المتنبي وسيلة يشفي بها غيظه سوى هجاء كافور ، فهجاه بأقذع ألوان الهجاء ، وأوجعه ، في قوله :

العبـــد ليس لحر صـــالح بأخٍ لو أنه في ثياب الحـــر مـــولود

لا تشتر العبد إلا والعصـــا معه إن العبيـــد لأنجاس منـــاكيد

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن يسيء بي فيه كلبٌ وهو محمود (١)

وكذلك نرى المتنبي في أخريات أيام حياته حين يقول :

أذم هـــذا الزمـــان أهيلهـــ فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصـــرهم عم وأسهدهم فهـــد وأشجعهم قرد

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عـــدواً له ما من صداقته بد (٢)

فنرى شاعرنا بعد أن كان يسب الزمان في قوله :

ولو برز الزمان إليّ شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامي(٣)

ونراه متقلباً حين ينقلب على الزمان تارةً ، فكأنه ليس من هـذا الزمـــان ، وتارةً أخرى ينقلب على أهله ، فهو يعيش في غربة ، ولكنهـــا ليـــست كغـــربة الشعراء الصعاليك مثلما ذكرنا عند الشنفرى سابقاً، بل يعد اغترابه اغتراباً فكرياً ، حيث إنه ينتمي إلى عالم فوق العالم الذي يعيش فيه ، ويرى كل ما دونـــه أقـــزام ينتمون إلى عالم أصغر مما كان يطمح في الوصول إليه، فهو ينفر من عالم يصفه

(١) الديوان ، ٢/ ١٤٤، ١٤٥.

(٢) أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي – ديوانه –شرح البرقوقي/٢: ١٩٨.

(٣) المصدر السابق /٢:٥١

تارة بالجبن، وأخرى بالجهل ، وثالثة بالبخل .....، ونرى نفوره الواضح من هـذا العالم حيث يقول :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد [1]

فهو لا يريد معاشرة الناس ، ولكنه مضطر إلى مداراتهم ، ويجد نفسه دخيلاً، وكل البشر أعداؤه، وقـد أحس الشـاعر بهـذا في شبابه ، وهـذا إن لم يكن في صبـاه ، مصرحـاً في شعره ، بقوله :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود [2]

حيث إن النقاد في البيت رأوا ادعاءه النبوة ، ولكن نرى أيضاً اختلافاً واضحاً بين اليهود والمسيح ،ويكرر هذا في نفس القصيدة في بيتٍ آخر قائلاً :

أنا في أمة تداركها اللـ هـ غريب كصالح في ثمود[3]

لا شك أن المتنبي يؤمن صراحةً باغترابه في مجتمعه الذي يعيش فيـه إلا أنه أيضاً غريب بفكره كاغتراب الأنبيـاء عن أقـوامهم برسالاتهم لا ينكره أحد؛ لأن الرسل غرباء بالضرورة في أقوامهم قبل أن يتبعوا .

ولا يبدو أن المتنبي مختلفاً عن هؤلاء الأنبياء ولا الرسـل فـي اعتقـاده وموقفه من غيره ، فقد سبق له أنه ادع النبوة في بادية السماوة، وحـدث لـه مـا حدث، ولا ريب أنه ظل يؤمن باعتقاده، وما انقلابه على الزمان وأهله في نهايـة حياتـه إلا تضامنياً كأنه يورد هنا وهناك في شعره كلما كانت تحين الفرصة فنراه يقول :

---

(١) المصدر السابق / ٢: ١٩٨.

(٢) المصدر السابق / ٢:٢٠

(٣) المصدر السابق / ٢:٢٢

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا أو عدوا مداجيا [1]

فالشاعر يتمنى الموت ، حينما لم يجد صديقاً مخلصاً في صداقته أو عـدواً مساتراً للعداوة، وهذا اغتراب للشاعر.

(١) الديوان – شرح البرقوقي/ ٤:٤١٧

الخاتمة

وهكذا ينتهي بنا البحث إلى صفحاته الأخيرة ، ولا أدّعي أنني أحطت بكل كبيرةٍ وصغيرةٍ تتعلق بالكشف عن الاغتراب ودوافعه في شعر المتنبي ، ولكنني حاولت قدر الإمكان ، فبدأت بعرضٍ موجز شملته المقدمة ، وفيها تناولت توطئة عن تشاؤم المتنبي وحياته العابثة ، وعن رحلة الفجر الكاذب التي أدت إلى ضياع طموحه ، وتحول الأمل عنده إلى ألم .

ولاحظت أن ما رُمي به من تُهم في ادعائه النبوة لم يستند إلى دليل صحيح وواضح ، ثم عرضت لمفهوم الاغتراب والسياق اللغوي له ، وظاهرة الاغتراب في الأدب العربي ، والعوامل الأساسية ذات الأثر المباشر في تعميق الشعور بالاغتراب ، ومظاهر الاغتراب في شعر المتنبي .

وبعد استثمار الجهد المبذول ، توصل الباحث إلى نتائج أهمها :

- أن المتنبي كان يؤمن صراحةً باغترابه في مجتمعه الذي كان يعيش فيه إلا أنه كان غريباً بفكره بعدما انقلب الأمل عنده إلى ألم ، والفرحة إلى ترحة .
- أن طموح المتنبي أدى إلى حقد وحسد الحاقدين عليه فاتهموه بتهم هو منها براء
- غربة شاعرنا في شعره كانت غربة نفسية اجتماعية ؛ بسبب ترفعه على أُناس عصره ، وشعوره ببعده عنهم وتميزه ؛ لأن البحث عن العظمة قد يصبح فكرة مسيطرة تلتهم صاحبها .
- ذاق المتنبي من الحياة الشهد وسرعان ما تحول الشهد إلى علقم ، ولكن علقمها كان أكثر من شهدها .

وبعد ، فهذا هو جهدي ، وهذه هي رؤيتي في " الاغتراب النفسي والاجتماعي ودوافعهما عند المتنبي"، وهي رؤية بشر غير معصوم من الخطأ والنسيان ، فإن كنت قد وُفقتُ فبها ونعمت ، وما توفيقي إلا بالله ، وإن كنت قد أسأت وأخطأت فحسبي أني قد بذلت ما في وسعي ، وأسأل الله أن يقيل عثرتي ، وأن يغفر زلتي ، إنه نعم المولى ونعم النصير

د. يوسف عباس

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- مجلة النفس المطمئنة – ابراهيم محمد المغازي –القاهرة – مطابع الأهرام – العدد (٧٩)
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان–ابن خلكان (د . ت) (د. ط) – عدة أجزاء

–الفن ومذاهبه في الشعر العربي – شوقي ضيف –دار المعارف – القاهرة (د. ت)

- ديوان المتنبي – أبو الطيب أحمد بن الحسين – بيروت للطباعة والنشر ، سنة ١٩٨٠م.
- منتخبات الأدب العربي – حنا الفاخوري وجماعة من أساتذة اللغة العربية –منشورات المكتبة البوليسية – بيروت – لبنان (د. ت)
- ديوان المتنبي – شرح البرقوقي – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – سنة ١٩٨٠م.
- ديوان الشنفرى –جمعه وحققه وشرحه–د.أميل بديع يعقوب –دار الكتاب العربي–بيروت سن ١٩٦٦م.
- زيادات ديوان المتنبي –عبد العزيز الميمني–الراجكوتي السلفية –سنة ١٣٤٦ه.
- حركات الشيعة المتطرفين–د.جابر العمر (د.ط) (د.ت)
- خزانة الأدب – للبغدادي–عدة أجزاء – مط.الأميرية ببولاق–١٢٩٩ه.
- – من روائع الأدب العربي في العصرين العباسي الثاني والأندلسي–السيد محمد ديب – ط(١) سنة ١٩٩٠م – دار الطباعة المحمدية – القاهرة
- شرح المشكل في شعر المتنبي لابن سيده تحقيق / مصطفى السقا ، و د / حامد عبد المجيد – الهيئة المصرية العامة للكتاب ،سنة ١٩٧٦م.
- الاغتراب – اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً – قيس النوري عالم الفكر –المجلد العاشر – العدد (١)– الكويت – سنة ١٩٧٩م.
- الكامل في التاريخ–لابن الأثير –ط(٢)–مط.المنيرية –مصر ١٣٤٩ه.

- لسان العرب – ابن منظور المصري – عدة أجزاء –دار المعارف (د . ت)
- مع المتنبي –طه حسين –ط(١٣)–دار المعارف –القاهرة (د.ت).
- المتنبي– محمود محمد شاكر –(د.ط)–سنة ١٩٧٧م.
- المتنبي وشوقي –دراسة ونقد وموازنة –عباس حسن–ط(١)–سنة ١٩٥١م.
- الاغتراب والتطرف نحو العنف = دراسة نفسية اجتماعية محمد خضر عبد المختار، سنة ١٩٩١م.
- التفكير التاريخي والحضاري عند الشعوب العربية السامية القديمة –محمد خليفة حسن – القاهرة سنة ٢٠٠٠م
- مختار الصحاح للجوهري – ت/ أحمد عطا
- المصباح المنير
- المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – مصر ٢٠٠٤م